

## نظرة قرآنية في نظرية مالتس السكانية

الدكتور محمد أبو زيد أبو زيد

بسم الله الرحمن الرحيم  
والحمد لله رب العالمين

### ملخص البحث

**درست** في هذا البحث ما سُمي بنظرية مالتوس السكانية وكانت بواورها عام 1798م. أما جوهرها فهو أن موارد الطبيعة أقل بكثير من تزايد السكان مما يهدد أهل الكوكب بمستقبل أسود جداً. وقد بينت في هذا البحث خطأ هذه النظرية وهو ما أثبتته علماء كثر من قبل ولكن الجديد هنا: النظرة القرآنية في هذا الرد، وإحياء الرد عليها لأن الفكرة لا تزال متبناة عند كثير من الباحثين.

وتبين من خلال هذا البحث أن نظرية مالتس كما أنها تناقضت مع العلم والواقع، فهي كذلك متناقضة مع القرآن الذي يظهر أن نعم الله على هذا الكوكب لا تعد ولا تحصى، وأن هذا كان منذ قديم الزمان، وأن التخلف الموجود فيما سُمي بالعالم المتخلف كان نتيجة من نتائج التخلف وليس سبباً فيه كما يرى مالتس، فإن الله سبحانه قد ملأ الكوكب بالخيرات وطلب من الإنسان الاستفادة منها وحسن توزيعها وحفظها. ولظروف استعمارية واجتماعية وتخلف علمي وعقائدي ضعفت هذه الدول عن هذه المهمة فوقع بها هي فيه من تخلف. ثم طرحت الحلول المؤيدة بالقرآن بجعل الإسلام المرجع لعلم الاقتصاد والسكان، والتنمية المستقلة ونفي التبعية وتحقيق العدالة الاجتماعية والمحافظة على موارد الطبيعة.

Koranic standipint in “Maltis Demographic Theory”  
The Research Summary

In this research, I've studied what they call it "Maltis Demographic Theory" that it's indications came out in 1798. The essence of this theory said that the nature resources are far less than the increasing of population; and by the time it will threat the people living in this planet and will lead then into a very dark future. I've explained in this research the error of the theory, and this is in fact what had been proved before by a lot of scientists. But the new thing in this Koranic opinion, is that to repel and keep on the repulsion against this theory because of many researchers who are still adopting the idea of this theory.

And through this research, have demonstrated that Maltis Theory has contradicted the science and the reality, as well as it has contradicted the Koran which shows that the God Bounties on this planet (the one and the only) are never to be counted. This fact was mentioned a very long time ago, but the existing retardation in what was called "The Under developed World" was one of the retardation results and it wasn't the cause as Maltis thought. Honestly, we have to know that Allah (Glory to him) had filled the planet with his gifts and boons, and asked the human being to get benefit from them, distribute them fairly and preserve them.

And because of Colonial and Sociological circumstances; in addition to the scientific and doctrinal retardation, made these countries to become weak and unable to take charge on this task. As a consequence; they suffer from the retarded state they are living in at present.

Thus, the supported solutions with Koran has been put forth to make the Islam the main reference for: Economics, Population, The Independent development, Denial the Subordination, Accomplishing the social Justice and Preserving the Nature Resources.

## منهجي في البحث

قامت في هذا البحث بعرض موجز لنظرية مالتس حول المشكلة السكانية وبينت ركائزه في هذه النظرية وأدلته عليها وحلوله السوداء للإنسانية لحل المشكلة السكانية. ثم اتبعت ذلك بموجز من ردود علماء الاختصاص عليه من الجانب العلمي والبحث، ثم الاستدلال بالواقع الذي يعارض نظرية مالتس وكان على عكسها. ثم اتبعت رد أهل الاختصاص بالرد القرآني، فحشرت الآيات المتناقضة مع نظرية مالتس تحت كل ركنية من ركائز فكرته ليظهر بأن هذه النظرية لا دينية مع أن صاحبها قسيس من دارسي اللاهوت. ولتظهر رحمة الله بالكون وأهله فيشرق الأمل والتفاؤل من فوق أنقاض نظرية مالتس. وبالتالي لتظهر أهمية المرجعية الإسلامية للمنطلقات السكانية والاقتصادية، حيث نبداً في مواجهة التخلف من هناك. وقد ركز البحث على أن المعيشة الضنكة التي نعيشها ترجع إلى الإعراض عن المنهج الإلهي المعصوم وسوء فهمه.

## مقدمة:

منذ أن أهبط سبحانه وتعالى أبا البشرية آدم وزوجته والشيطان إلى الأرض قال لهم: إن

الأرض مستقر مؤقت لكم إلى يوم القيامة وستجدون فيها من موارد الطبيعة ما يزيد عن حاجاتكم: {ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين}1. ومن على الإنسان بكثرة نعمه فقال: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها}2 وهذا شيء طبيعي جداً إذ لا يعقل من الإله الحكيم العليم الخبير أن يخلق الإنسان ويورطه في كوكب قليل الموارد بعد أن أخبره عن طريق الرسل أنه أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة: {وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة}3.

ومن المؤسف أن يخرج رجل دين وقسيس في بريطانيا يتناقض مع هذا البيان القرآني بل والنصراني الإنجيلي ثم يدعي أن موارد الطبيعة غير متناسبة مع تزايد السكان وأن البلاد المختلفة ستبقى متخلفة ما لم تحد من تزايد السكان فيها بشكل كبير. ومن المؤسف أكثر أن تجد هذه الأقوال الخرافية آذاناً صاغية.

### توماس روبرت مالتس:

هو أحد القساوسة الانجليز، ولد في إنجلترا عام 1766م، وتلقى تعليماً خاصاً حتى التحق بجامعة كامبريدج في الثامنة عشرة من عمره، ثم تخرج عام 1787م من الجامعة والتحق كاهناً بالكنيسة عام 1797م. ثم عين في عام 1805م أستاذاً لتاريخ الاقتصاد السياسي في الكلية الهندية بلندن. واشتهر مالتس بما كتبه عن السكان، حتى لقب بـ: (أبو علم السكان)، كما وضع ثلاثة كتب أخرى في الاقتصاد السياسي وعشرات المقالات الأخرى، وتوفي عام 1834م. وكان قد أمضى عمره في ظل نظام رأسمالي4.

### نظرية مالتس:

"يرى المختصون في علم السكان أن روبرت مالتس أول من أصل لمشكلات الموارد الغذائية والتزايد السكاني، وذلك في مقاله الشهير سنة 1798م بعنوان: (مقال عن مبدأ السكان) ثم نشر مقالات أخرى نحو نفس المفهوم مع بعض التعديلات، وكان مفهوم نظريته المطروحة أن سكان العالم سيواجهون موقفاً صعباً تكثر فيه المجاعات والتخلف وذلك لأن التزايد السكاني أكبر بكثير وبغير حدود من قدرة الأرض على إنتاج وسائل العيش. وذكر في مقولته المشهورة بأن الزيادة السكانية تتبع متوالية هندسية بينما زيادة الغذاء تتبع متوالية عددية أو حسابية. ولتوضيح المتوالياتتين يضرب مالتس هذا المثال: إذا أخذنا الأرض كلها.. وفرضنا أن السكان الحاليين يعادلون ألف مليون فإن الأنواع البشرية سوف تتزايد حسب الأرقام:

1، 2، 3، 4، 8، 16، 32، 64، 128، 256، ... الخ.

بينما يزداد القوت حسب الأرقام: 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، ... الخ.

وعلى ذلك فخلال قرنين يكون عدد السكان بالنسبة للمواد الغذائية كنسبة 256 إلى 9، وبعد ثلاثة قرون كنسبة 4096 إلى 13. وفي مرحلة متقدمة تؤول الموارد إلى تناقص فالطبيعة لها حد

في العطاء تبدأ بعده في تناقص الموارد وهذا ما سُمي بـ (تناقص الغلة) وعدّ مالتس زيادة السكان سبباً في تخلف ما سُمي بـ (البلاد المتخلفة) وأن كل محاولة للخلاص من التخلف والمجاعة ستبوء بالإخفاق ما لم يحدّ تزايد السكان<sup>5</sup>.

ومن سوء حظ مالتس أن فكرته اعترض عليها كثير من العلماء وأول من "اعترض عليه أبوه" 6 ونشب صراع حاد بينه وبين بعض المعاصرين له، مثل جودوين وكوندروسيه ودفيد ريكاردو وجان باتست ساي حيث كان مالتس يمثل وجهة نظر معارضة تماماً لأفكار هؤلاء<sup>7</sup>. وبعد مالتس حصل تطور اقتصادي وتقدم حققته مجموعة دول غرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية خلال فترة الأربعينات والخمسينات والستينات وغطى هذا التقدم تزايد السكان وزاد عليه بكثير على عكس ما تنبأ به مالتس لدرجة أن د. رمزي زكي قال: وأصبح هناك ما يشبه الإجماع الضمني بين الاقتصاديين، بأن التاريخ قد أثبت عدم صحة الرؤية المالتسية في السكان<sup>8</sup> ويقول دنيس. هـ. رونج: ولا يتقبل اليوم نظريته عن السكان بالشكل الذي صدرت به أصلاً سوى قلة من الديموغرافيين<sup>9</sup> (علماء السكان).

## ما الداعي للتعرض لنظرية مالتس اليوم؟

قد يقول قائل: إذا كانت المالتسية قد انتهت مع نهاية القرن التاسع عشر بسبب التقدم الذي ضاعف موارد الطبيعة بما يكفي للإنسان ويزيد، فعلام نناقش مالتس الآن؟

وللجواب نقول: إن فكرة مالتس لم تغب تماماً وإنما ظهرت بأشكال أخرى أكثر لطفاً وأقل تشاؤماً لكن جوهرها واحد، وهو أن الموارد لا تكفي لتزايد السكان على الإطلاق. وصار الحديث يدور عن الحجم الأمثل للسكان. وممن تلقف هذه الفكرة مارلو فينكل يلش الألماني وسيد جويك عام 1883م في كتابه "مبادئ الاقتصاد السياسي" وأدوين كانان وغيرهم. ومثل هذا كل ما سمي بـ (نيوكلاسك) أو المالتسيون الجدد<sup>10</sup>. وقد نشط هذا الفكر بعد الحرب العالمية الثانية وبالتحديد في الستينات من هذا القرن على ألسنة المالتسيين الجدد الذين رأوا في قلة الغذاء العالمي والجوع والتخلف سبباً من أسباب النمو السكاني وهذا ما أسموه (الانفجار السكاني)<sup>11</sup>. ورغم أن هذه الأفكار من نتائج المفكرين بالدول الرأسمالية الغربية، إلا أنه من المشاهد أن تلك التوصيات قد تغلغلت الآن في كثير من دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، بعد أن نجح المالتسيون الجدد في (بيع) هذه التوصيات وترويجها لدى عدد كبير من الاجتماعيين والأطباء والاقتصاديين في هذه الدول<sup>12</sup> وأصدر نادي روما عام 1972م تقريره الشهير (حدود النمو) وهو تقرير أعاد للأذهان بقوة الرؤية المالتسية المتشائمة. وراح يبشر بوقوع كارثة عالمية قبل انتهاء القرن الحادي والعشرين... بسبب انتهاء المواد الأولية، وتلوث البيئة ولمنع هذه الكارثة من الحدوث ينبغي وقف النمو السكاني<sup>13</sup> "وترعمت من قبل (الجمعية الطبية المصرية) مبدأ تحديد النسل"<sup>14</sup> ومثل هذا "دعوة عباس عمار أحد وزراء الشؤون الاجتماعية، بل أكد ميثاق العمل الوطني في عام 1961م أن

مشكلة التزايد في أعداد السكان هي أخطر العقبات التي تواجه جهود الشعب المصري في انطلاقته نحو رفع مستوى الإنتاج...15" وفي ألمانيا ودول أوروبا الشرقية واليابان والاتحاد السوفيتي وبولندا والمجر ويوغسلافيا ورومانيا وأمريكا وبريطانيا وغيرها ظهرت تشريعات وقوانين تبيح الإجهاض وتدعو لتحديد النسل وغير ذلك مما يقلل عدد السكان"16. ولما كانت قد عادت المalthusية في جوهرها فلا بد من حوار معها..

## مرتكزات مalthus والرد عليها:

### 1- تزايد السكان يتم من خلال متوالية هندسية وهو مستقل عن أي مؤثر خارجي:

فيرى مalthus أن "السكان يتضاعفون في الكوكب كل 25 سنة"17 بل ذهب بعضهم إلى القول بأنه إذا لم يحد من عدد السكان سيأتي يوم لا يجد فيه الفرد مساحة يعيش فيها على الكوكب أكثر من بوصة مربعة واحدة18.

"ويرى مalthus أن السكان متغير مستقل، لا علاقة له بالنظام أو بالمحيط الاجتماعي الذي يوجد فيه"19. "إلا أن رؤية مalthus هذه التي لا ترى مؤثراً على تزايد السكان إلا الطبيعة هي أقرب للتطبيق على أمة الحيوانات منها إلى أمة الإنسان لأن الحيوان يتحكم فيه الطبيعة والغريزة الحيوانية وأما الإنسان فيخضع لتأثيرات كثيرة منها ذات طابع اجتماعي مثل درجة الاستفادة من الطبيعة ومدى تسخيرها ومدى تطور قوى الإنتاج والعلاقات الإنتاجية السائدة وغير ذلك من العادات والتقاليد والقيم... هذا يعني أن تزايد سكان الكوكب ليس مجرد ميل غريزي كما يتصور مalthus"20 "وقد أثبتت البحوث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية بعد مalthus... أن السكان في أي مجتمع هم متغير تابع ولا يجوز معالجته بمعزل عن سائر المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية"21. كما أن هذه الظروف قد تختلف من بلد لآخر من جوانب كثيرة كنسبة الذكور إلى الإناث في كل بلد والنسبة المئوية لكبار السن ولصغار السن وللمتزوجين والعزاب وللريفيين والحضرين ولمن يستعمل موانع الحمل. ثم الحروب وأثرها في نقص عدد السكان"22 وغير ذلك من تقدم الطب الذي يقلل من نسبة الوفيات وقلة الزواج الذي يقلل من نسبة المواليد.

عدد سكان العالم في كل فترة واختلاف نسب الزيادة منذ سنة 1750 إلى سنة 1950

السنة	1750	1800	1850	1900	1950
القارة	مليون	مليون	مليون	مليون	مليون
أمريكا الشمالية	1	6	26	81	166
أمريكا الجنوبية والوسطى	11	19	33	63	162
أوروبا	140	187	226	401	541
آسيا	479	602	749	937	1320

السنة	1750	1800	1850	1900	1950
القارة					
أفريقيا	95	90	95	120	198
أستراليا والجزر المحيطة بها	2	2	2	6	13
المجموع	728	906	1171	1608	2400

"وكذلك الهجرات التي كانت متفصلاً كبيراً لتزايد السكان في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث الهجرة إلى المستعمرات نحو الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والأرجنتين والبرازيل وأستراليا وهي بلاد كانت ما تزال بكراً" 23. ومن الملاحظ أن معظم أوروبا والولايات المتحدة اقترب عدد سكانها من الثبات بينما هناك تزايد واضح في غيرها" 24.

2- موارد الطبيعة تتزايد من خلال متوالية حسابية إلى حد أقصى تبدأ بعده بالنقصان (الغلة المتناقصة).

"من سوء حظ مالتس أن نظريته كانت في بدء الثورة الصناعية في إنجلترا وبدء استغلال السهول العظمى بأمريكا الشمالية في الزراعة فقد صاحب زيادة الثروة نمو سريع للسكان، وهذا لم يحل دون ارتفاع عام في مستوى المعيشة استمر بلا انقطاع تقريباً حتى الوقت الحاضر، وذلك يناقض ما يمكن أن نتوقعه إذا سلمنا بنظرية مالتس" 25 "فمنذ الثورة الصناعية تضاعف حجم الإنتاج الصناعي في دول أوروبا وأمريكا الشمالية بمقدار يتراوح ما بين ثلاثين وأربعين مرة خلال الفترة ما بين 1850-1950م... بينما عدد السكان - خلال نفس الفترة - قد تضاعف فقط" 26. وهذا على نقيض نظرية مالتس. ومن هنا يمكن أن نفهم ما قاله د. عبد الحميد لطفي: أما المتتالية الحسابية فلم يكن لها أساس استقرائي ولم يدعمها مالتس بأي دليل... ومن السهل أن نبرهن على أن وسائل المعيشة تتزايد بدورها حسب متتالية هندسية" 27. ويقول د. علي عبد الرازق جليبي: لقد كشف الإيكولوجيا (الإنسان والبيئة) البشرية أن الإنسان كان يستعين في حفظ التوازن بين الزيادة في نمو السكان ووسائل العيش في كل مجتمع عبر مراحل تاريخ البشرية بتطور بينته التكنولوجية والتنظيمية... وهذا معناه أن إنتاج الغذاء لم يكن أقل عن الزيادة في نمو السكان على خلاف ما كان يتوقع مالتس 28 هذا فيما مضى من تاريخ. فكيف ونحن الآن في عصر التقدم التكنولوجي وأثره الكبير على الزراعة، واكتشاف موارد البحار والجبال وغزو الفضاء الخارجي؟ لا شك أن هذا على عكس قانون مالتس في الغلة المتناقصة.

## الردّ القرآني على متواليته مالتس:

أ-الرجم بالغيب:

إن الطريقة القطعية التي تكلم فيها مالتس بما يخص النتيجة الحتمية في تزايد السكان بالمتوالية

الهندسية وموارد الطبيعة بالطريقة الحسابية، إن هذه النظرية الحتمية والتي لم تبُن على قاعدة علمية دقيقة تعتبر رجماً بالغيب مذموماً شرعاً، وقد "عاب القرآن مثل هذا المنطق الحتمي على العاص بن وائل السهمي فيما روى القرآن عنه"29: ﴿أفأريت الذي كفر بأياتنا وقال لأوتين مالا وولداً﴾30 فكان الرد عليه: ﴿أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾31. فاعتبر هذا رجماً بالغيب مذموماً لأنه لا يقوم على أصول يقينية. وإن كان هذا الكافر المذكور في الآية الكريمة دقيقاً في عبارته أكثر من مالتس الذي تنبأ بزيادة الولد ونقصان المال أو (الموارد الطبيعية) وذلك لأن العاص بن وائل ربط بين الأموال والأولاد ربطاً متوازياً بتكثيره لفظي المال والولد ليفيد التكثير لكل منهما وهذا الربط سليم وكثيراً ما ورد في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾32. وقد رأينا كيف أن الواقع أثبت خطأ تنبؤ مالتس.

وللإكيد على أن الرزق سواء أكان من الأولاد أم الموارد فهو من الله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾<sup>33</sup>. ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾<sup>34</sup>.

ب-النمو السكاني ليس متوالية هندسية:

مرّ معنا ردود أهل الاختصاص على مالتس في هذه المسألة وكذلك خلاف الواقع لها والقرآن يردّ عليها كذلك حيث إنه ذكر أشياء كثيرة تؤثر في النمو السكاني قلة وكثرة منها:

- **الدعاء المستجاب:** الذي يرزق الله بسببه الكبير والعقيم وغيرهما أولاداً مثل دعاء زكريا عليه السلام: {وزكريا إذ نادى ربه ربّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين} 35 فهو هنا كان يسأل الولد وقد استجاب الله سبحانه له وكذلك حصل مع إبراهيم عليه السلام: {الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل وإسحاق} 36.

- تعيينه سبحانه لنسبة الذكور والإناث في المجتمع حيث تختلف من فرد لآخر ومن مجتمع لآخر وهذا يبطل المتوالية الهندسية. قال تعالى: {الله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير} 37. "أي يعطي بعض خلقه إناثاً فقط كلوط عليه السلام وبعضهم ذكوراً فقط كإبراهيم عليه السلام وبعضهم يعطيه من النوعين الذكران والإناث. وبعضهم الرابع والأخير يجعله عقيماً لا ذكر ولا أنثى كإحيى وعيسى عليهما السلام" 38. فهذا التقسيم الرباعي يعتبر من صلب النمو السكاني وهو كما ذكره سبحانه خاضع لـ (عليم قدير) وليس محكوماً بالمتوالية الهندسية.

- الأثر الكبير للاستغفار في كثرة الولادات: ومنه قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: {قللت: استغفروا ربكم إنه كان غفراً\* يرسل السماء عليكم مدرراً\* ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً}39. "قال رجل للحسن: ادع الله أن يرزقني ولداً؛ فقال له: استغفر الله".40

- معاصي الناس وما تستجلبه من عقوبات إلهية يكون لها الأثر الكبير في كثرة الوفيات مما





{فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأُخْرِجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ}{50}. وفي سورة الأعراف: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ\* قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تَخْرُجُونَ}{51}. إذا فالح سببانه قد جعل لهذا الكوكب بما فيه قدراً وأجلاً ينتهي إليه فقد قال: {قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} وعبر عن الفناء بكل وضوح في قوله: {كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَانٍ\* وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}{52}.

إذا المتوالية الهندسية التي لا نهاية لها نحو المستقبل تتعارض مع عقيدة المؤمنين بالله من أهل الكتب السماوية وهي مقولة قالها مشركو العرب قبل مالتس وهذا ما رواه سبحانه عنهم في قوله: {وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون} 53. وقد صنف الشهرستاني للقائلين لهذه المقولة تحت عنوان: "منكرو الخالق، والبعث، والإعادة" 54.

والآية القرآنية: {ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين} تفيد إضافة إلى قطع المتوالية الهندسية أن المتاع مستمر مع استمرار الإنسان إلى حين، وهو يوم القيامة. ولفظ المتاع يحمل معنيين: الأول: ما ينتفع به. والثاني: استمرار الانتفاع إلى مدة معلومة. قال الأصفهاني: المتاع انتفاع ممتد الوقت 55. وبالتالي يشمل لفظ المتاع كل ما ينتفع به من موارد الطبيعة ويضمن بقاء هذه الموارد إلى حين وهو يوم القيامة، أي إنه سبحانه جعل تزايد السكان متناسباً مع تزايد الموارد ضمن نظام واحد، على خلاف ما فعل مالتس من التفرقة بين نمو السكان والموارد، فجعل نمو السكان متوالية هندسية، والموارد متوالية حسابية، فكانت النتيجة في غاية الخطأ والتشاؤم والبعد عن الدين.

ج-موارد الطبيعة غير مقيدة بمتوالية حسابية:

القرآن الكريم يخبرنا أن موارد الطبيعة أعظم بكثير مما يعتقد الناس. قال تعالى: {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} \* وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ \* وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ يَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ \* وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} \* وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ \* هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ \* يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} \* وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} \* وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ} \* وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} \* وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} \* وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} \* أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ} \* وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} 56 فهذه الآيات بين فيها سبحانه بعض ما أنعم به على الإنسان من مثل الأنعام وفوائدها، والأمطار للشرب والزراعة وكل الثمرات، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وما في البحر من حيوانات

رغبنا بأكلها. ومعلوم أن تكاثر هذه الحيوانات يفوق المتواليات الحسابية والهندسية وهي من موارد الطبيعة كما لفت النظر سبحانه إلى المعادن الثمينة التي تستوطن البحار وإلى التجارات البحرية والسبرية. ثم يطلب منا سبحانه الاستفادة من هذا كله لصالح الإنسان فقال: {لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} فصار إخراج الموارد منوطاً بعقلية الإنسان وتفكيره كما ذكر في هذه الآيات. ثم عمم سبحانه نعمه وقال إنها تفوق وسائل الحصر سواء أكانت حسابية أم هندسية فقال: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها}. ولكن الإنسان كثيراً ما يغفل عن نعم الله ويظنها كما ظنها مالتس قليلة نادرة فلا يقابل هذه النعم بالشكر وإنما بالكفر. قال تعالى: {وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار} 57. وأما المؤمن الذي أعمل عقله وتفكيره في البحث عن هذه الموارد والاستفادة منها فلا شك أنه يعرف فضل الله العميم عليه ويعجز عن شكر ربه.

كما أن الله سبحانه أخبرنا بأنه لم يتكفل برزق الإنسان فقط على هذا الكوكب، وإنما تكفل برزق كل من دبّ عليه فقال: {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها} 58 ولما كان الإنسان يخشى على رزقه كثيراً فتصيبه الأثرة في موارد الطبيعة، قدّم سبحانه رزق غير الإنسان على الإنسان إشارة منه إلى كثرة نعمه التي تكفي الجميع وتزيد فقال: {وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم} 59 وإذا كان سبحانه قد تكفل برزق من لا يقدر على حمل الرزق أو تخزينه من الحيوانات، فكيف يخاف المجاعة من يستطيع حمل الرزق وتخزينه وحفظه لوقت طويل؟!.

### د- القرآن كثيراً ما يؤكد على التوازن بين السكان والموارد:

لو تأملنا آيات القرآن الكريم لوجدناها تعطي لمحة تاريخية قديمة عن وجود التوازن بين الأرزاق والسكان، ومن ذلك الآيات التي تتحدث عن تاريخ أقدم من 3500 ق.م أي أقدم من فرعون حيث قال سبحانه لقارون: {أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً} 60. وقال في مقام آخر: {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثأروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها..} (61). وقال مخاطباً منافقي العرب ☺ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً...} 62. نرى في هذه الآيات التوازن بين كثرة السكان وكثرة ما في أيديهم من النعم منذ القديم وهذا ما سبق وأشار إليه علماء السكان والبيئة.

ولا شك أن هذا التوازن من مستلزمات الحكمة الإلهية إذ لا يعقل أن يخلق الله الإنسان ويورطه في كوكب لا يكفي لمعيشته وتتأسله، مع أن جهاز الهضم والتناسل من صنع الله وخلقته. وقد بين سبحانه أنه قدر أقوات الأرض عندما خلقها فقال: {وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين} 63. وقد امتدح سبحانه نفسه على حسن تقديره فقال: {فقدّرنا فنعم القادرون} 64.

### 3- التخلف باقي ما لم يحد من السكان:

ثمة حقائق لا يمكن للباحث أن يتجاهلها وهو أن ما يُسمى في أيامنا بـ(البلاد المتخلفة) والتي تبلغ في عدد سكانها ثلاثة أرباع العالم، "يعاني 40% منها من فقر مدقع، وأعداد هائلة من العاطلين عن العمل، و80% من سكان الريف في هذه البلاد لا تتوافر لديهم مياه الشرب النقية، ويقدر عدد المصابين بالعمى ما بين 30-40 مليون فرد. ونسبة الأمية في الدول المتخلفة بسبب تلوث المياه ونقص الفيتامينات: في قارة آسيا ما بين 47-55%، وفي دول أمريكا اللاتينية 25% وفي الدول الأفريقية ما بين 55-74% وهناك 34 دولة تزيد فيها النسبة على 80% وطبقاً لتقديرات اليونسيف مات في عام 1979م وحده ما يزيد عن 12 مليون طفل تقل أعمارهم عن 5 سنوات بسبب الجوع". 65.

"ويرى مالتس والمالتسيون أن كل محاولة للتنمية محكوم عليها بالفشل ما لم يحدّد عدد السكان". 66. "وأن خطر هذه الأعداد الكبيرة خطر عالمي بسبب استنزاف موارد الطبيعة" 67.

والحقيقة، أن كثرة السكان ليست سبباً في التخلف وإنما هي نتيجة له، فإن كثرة السكان تساعد في الدفاع عن البلاد وتوفر الأيدي العاملة والكفاءات إذا ما وجدت الحكومات التي توظف هذه الأيدي وفق خطط اقتصادية ناجحة. "ومن الملاحظ أن جميع الدول العظمى تقوم على أعداد ضخمة من السكان" 68. وأما "النمو المزدهر الذي شهده الغرب فليس راجعاً لقلّة العدد في السكان وإنما للقدّم التكنولوجي الهائل والحصول على مواد الطاقة وبالذات النفط من دول العالم الثالث بأبخس الأثمان. "وتقسيم العمل الدولي بين الدول المتقدمة والمتخلفة لصالح المتقدمة، وغير ذلك من الإيجابيات" 69. وغير صحيح أن أهل هذه البلاد المتخلفة يستنزفون موارد الكوكب لأن أهل هذه البلاد والذين يمثلون ثلاثة أرباع سكان الكوكب "لا يحصلون إلا على نحو عُشر الناتج القومي الإجمالي للعالم، وإن ما يتكلفه العالم من الموارد لإطعام أمريكي واحد يزيد 30 مرة على ما يتكلفه لإطعام الهندي" 70.

وأما الأسباب الحقيقية وراء هذا التخلف فهي كثيرة وفي مقدمتها "الاستعمار الذي استولى على هذه البلاد وكرّس فيها التخلف، وعندما استقلت وجدت نفسها قد فقدت كثيراً من ثرواتها وما بقي منها لا تملك الآلية لاستثماره. كما أن هذه البلاد بقيت متأثرة بالفكر الاقتصادي الغربي لهذه البلاد والذي يجعلها في حالة تبعية للغرب، وبمعنى أوضح لتبقى ثرواتها مواد أولية يستوردها الغرب بينما تصبح البلاد سوقاً لمنتجاتهم وميداناً للشركات الأجنبية لتستمر في استنزاف خيرات البلاد، فقد بلغت الأرباح الاحتكارية للشركات الأجنبية في هذه البلاد والتي حولت إلى البلاد التابعة لها خلال الفترة من 1960-1970م حوالي 51.9 مليار دولار" 71.

"ومن جهة أخرى فأكثر هذه البلاد تعاني من حكم ديكتاتوري فاسد لا يقوم بتوزيع الثروات بالعدل وينفق أموال البلاد على العسكر وأجهزة الأمن التي تحمي بقاءه في السلطة. كما تعاني هذه البلاد من ركود اقتصادي وعدم تبني سياسة اقتصادية واضحة، ويتفشى فيها الفساد وفساد النظم الإدارية مما يشنت ويضيع ثروة البلاد، فتلجأ إلى الديون الربوية، وتكثر منها إلى أن تغرق في

بحرها وتزداد عجزاً، فتكثر البطالة وتهاجر الكفاءات التي لم تجد مجالاً للعمل في بلادها إلى الخارج. "ففي عام 1980م كان بالدول الرأسمالية 7 ملايين من هذه الخبرات، وتكسب هذه الدول من ورائهم من 60-65 مليار دولار سنوياً"<sup>72</sup>. كل هذا وغيره أدى إلى ظهور ما سُمي بـ(المشكلة السكانية) والحقيقة هي نتيجة تخلف وليست سبباً فيه.

## متابعة الردّ من خلال القرآن الكريم:

القرآن الكريم يرفض التخلف والتأخر ويطلب من أمة الإسلام أن تكون رائدة الكوكب كما أراد الله سبحانه حيث قال: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر} 73 وقال: {لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً} 74 وكثيراً ما وجه الله الناس لاستعمال العقل، كما فضل العلم وأهله: {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} 75. وحض الناس على العمل لعمارة الكوكب وصلاحه فقال: {هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها} 76 وقال: {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} 77 وطلب من عباده سبر أغوار هذا الكوكب بعد أن ذلّل لهم فقال: {هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه} 78 وقال: {فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله} 79. وبالتالي فما أصاب الإنسان من ضيق فمن كسبه وتقصيره في استخلاص الخيرات التي سخرها الله له في السموات والأرض. قال تعالى: {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك} 80 وقال: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس} 81 وقال: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم} 82.

ولعل الحكومة التي تحكم البلاد يقع عليها العبء الأكبر من هذه المسؤولية لأن الناس تبع لحكامهم. وقال تعالى مخاطباً لنبيه داود: {إيا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق} 83. وقال: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل} 84. "فمن أهم ما يجب على الحاكم: إقامة العدل. وإشاعة الأمن والاستقرار. وتهينة ما يحتاجه الناس من مختلف الصناعات والحرف والعلوم لأن كل هذه الأشياء من فروض الكفاية لحاجة الأمة إليها. واستثمار خيرات البلاد بما يحقق الرخاء الاقتصادي والعيش الكريم للرعية" 85. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع ومسؤول عن رعيته فالإمام راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته..." 86 كما يجب على حاكم المسلمين أن يولي عليهم خيارهم من أهل الكفاءات كما قالت بنت شبيب عليه السلام فيما رواه الله عنها: {إن خير من استأجرت القوي الأمين} 87. ولذلك أمر سبحانه بعدم طاعة المسرفين المفسدين فقال: {ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون} 88. وإن كثيراً من الحكومات اليوم وبالذات التي توصف بالمتقدمة قد أفسدت بمصانعها ومعاملها البيئة من هواء وأرض وأنهار وبحار مما أتلّف من موارد البيئة بدل زيادتها، "فهناك ما يزيد على 90 دولة تواجه مشكلة التصحر ويؤكد الخبراء أن



بالموانع الإيجابية: تلك العوائق التي من شأنها زيادة معدل الوفيات كالحروب والمجاعات والأوبئة. وأما الموانع السلبية: فتتمثل بتخفيض معدل المواليد عن طريق تأخير سن الزواج وكبح الشهوة الجنسية ومنع الفقراء من الزواج وكثرة الإنجاب. ويرى مالتس أن هذه الموانع لا مفر منها وهي حتمية ولا نجاة للكوكب بغيرها. ولذلك كان مالتس من أشد المعارضين لقانون (إغاثة الفقراء) لئلا يتشجعوا على الزواج وزيادة نسلهم. وقد استفاد ريكاردو من مالتس وجاء بنظرية (الأجر الحديدي) للعمال وهو الأجر الذي يؤمن الحد الأدنى للعامل ليجدد جنسه فقط دون أن يزيد وذلك للحاجة إلى الفقراء كعمال فقط وبالتالي يحد من قدرتهم على الزواج والتكاثر<sup>101</sup>. "بل وصل الحد ببعض المالتسيين الجدد إلى أن اقترح:

1- تعقيم الرجال والنساء بشكل إجباري.

2- التعقيم الجماعي بغير علم الناس عن طرق وضع مواد كيميائية في الماء والطعام.

3- قانوناً بإباحة الإجهاض.

4- إلغاء قوانين إغاثة الفقراء حتى يمنع من تكاثرهم.

5- وضع قوانين تعقد عملية الزواج.

6- وضع ضرائب على الأطفال وزيادة تكاليف الزواج والرسوم المتعلقة به وبالأطفال.

وغير ذلك من المقترحات الوحشية للإنسانية<sup>102</sup>. وقد بينت سابقاً أن المشكلة السكانية نتيجة من نتائج التخلف وليست سبباً فيه، وأضيف هنا إضافة لا بد منها فأقول: "إذا كانت كثرة الناس تسبب الجوع، فالأولى أن نتوقع انتشار المجاعة في البلدان التي فيها عدد أكبر من السكان بالقياس إلى كل فدان مزروع. لكننا لا نجد مثل هذه العلاقة. قارن بين الصين والهند مثلاً. فالصين تملك مجرد نصف الفدادين المزروعة لكل فرد مقارنة بالهند. ومع ذلك فقد توصل الشعب الصيني في عشرين سنة فقط إلى القضاء على كل أثر ظاهر للجوع، بينما لا يزال الملايين يجوعون في الهند... ولناخذ هنا حالة أفريقيا جنوب الصحراء كمثال، حيث توجد بها خفة سكانية بالنسبة للأراضي المزروعة إذ يوجد نحو الفدانين ونصف من الأرض المزروعة لكل فرد. أي أكثر مما في الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي وست إلى ثماني مرات أكثر مما في الصين ومع ذلك تعتبر هذه المنطقة من أكثر مناطق العالم تعرضاً للجوع"<sup>103</sup>.

## الردّ القرآني على حلول مالتس:

بينت سابقاً أن المشكلة السكانية نتيجة من نتائج التخلف وليست سبباً فيه وبالتالي كل حل يبتعد عن الأسباب الحقيقية للتخلف ويتجه نحو أعراضه فحسب يعتبر مضیعة للوقت والجهد.

وأما بالنسبة لحلول مالتس للإنسانية لمشكلة التخلف والجوع ونفاد موارد الطبيعة فهي حلول يرفضها القرآن رفضاً باتاً كما ترفضها الإنسانية والنفوس السوية فإن ما يسميه مالتس بالموانع



عند النصارى وهو (التبئل) بمعنى الانقطاع للعبادة والابتعاد عن الزواج وهذا المعنى لم يؤيده الإسلام. ويبيّن القرآن أنه ليس من عند الله وإنما أحدثه النصارى فقال: {ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم} 112. كما أن هذه الفكرة- أي تأخير الزواج- مدعاة للانحراف والشذوذ وهذا من أمراض الغرب اليوم. ولما كان التبئل أو تأخير الزواج فكرة مناقضة للفطرة وميولات البشر، لجأ الناس إلى الزواج مع استعمال موانع الحمل والإجهاض، مع أن الإجهاض مخالفة واضحة للشرائع السماوية. قال تعالى: {ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأً كبيراً} 113. ففكرة مالتس والمالتوسيين لا شك في خطئها ومخالفتها للشرائع وهي أشبه بما كان يفعله العرب الذين نزلت فيهم الآية السابقة وهو وأد البنات "وهي عادة فعلها اليونان والرومان وباقي شعوب البحر المتوسط بحجة اقتصادية" 114 وحاربها القرآن وضمن للأطفال في بطون أمهاتهم وخارجها حق الحياة. وأمر بعلاج المشكلة السكانية عن طريق تنمية الموارد.

وفكرة عدم إغاثة الفقراء لئلا يتزوجوا ويتناسلوا ولتزداد نسبة الوفيات فكرة من أقبح الأفكار التي عرفتتها البشرية والتي ترفع عنها كثير من المشركين لأنها تخالف ما جبل عليه الإنسان من الرحمة والشفقة فإن مالتس نحر القيم والمبادئ والعقائد من أجل قصعة طعام تقدم للبرجوازيين الذين يصدق فيهم قول الشاعر:

بل اختطف المتخوم لقمة جاع  
فيا ليتها في جوفه جمرات

ونسى القسيس مالتس أن الله خلق الإنسان ليس ليأكل فقط وإنما من أجل أن يعبدّه ويقيم على هذا الكوكب خلافة القيم والأخلاق والمبادئ والرحمة. قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} 115. وبين سبحانه أنه هو المالك الحقيقي للمال ثم أمر بإنفاقه على الفقراء فقال: {وآتوهم من مال الله الذي آتاكم} 116 بل جعل ما يعطى للفقراء حقاً من حقوقهم على الأغنياء فقال: {والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم} 117. كما بين القرآن أن الإنسان أي جنس الإنسان مكرم عند الله فقيره وغنيه، وعلى اختلاف ألوانه فقال: {ولقد كرّمنا بني آدم} 118 وبين أن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى فقال: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} 119. بل بين القرآن أن من أسباب النكبات التي تصيب الناس منع الصدقات على الفقراء فقصّ علينا قصة أصحاب البستان الذين أرادوا أن يجنوه دون علم من الفقراء لعدم الرغبة في إعطائهم منه فقال: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين \* ولا يستثنون \* فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم} 120. ولم يقف القرآن عند هذا الحد بل ارتقى إلى درجة الإيثار على النفس وإعطاء المحتاجين فقال: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} 121. فأين مالتس من هذه القيم الإسلامية الإنسانية.

### حقيقة المالتوسية:

لو أمعنا النظر في جوهر المالتوسية ولوازم هذا المذهب لوجدناها متناقضة مع الدين وهي أقرب إلى الإلحاد وإنكار المعاد، لأن المتوالية الهندسية السكانية لم تضع حداً لهذا التزايد، وقد سبق



أن بينت المنظور القرآني الذي يحكم بنهاية الكون وأن الخلود لله سبحانه وحده، كما أن القول بأن الموارد الطبيعية غير متوازنة مع نمو السكان يعود بالاتهام على خالق الإنسان والطبيعة ومنزل آدم على هذا الكوكب الفقير بأنه لم يكن حكيماً بفعله هذا، كما أنه قصر في إطعام عباده ورعايتهم.. وغير ذلك من الأمور العقائدية والتشريعية.. وقد عاب القرآن الكريم على بعض العرب (الدهرية) في اعتقادهم دوام الدهر وعدم الفناء وبالتالي عدم البعث والحساب، فقال سبحانه على لسانهم: {وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون} 122. ولذلك ليس من الغريب "أن دارون كان شديد الإعجاب ومن المتحمسين لنظرية مالتس، لأنه رأى فيها تأكيداً لنظرية النشوء والارتقاء في مجال المجتمع البشري" 123 لأن مالتس يؤكد أن البقاء في المجتمع للأقوى وأن الفقير لا بقاء له لأن الطبيعة تستحقه. "ولذلك اتهم مالتس- وبخاصة أول ما صرح بفكرته هذه- رجال الدين المسيحي واعتبروا كتاباته ضد الدين، مما أساء لسمعته باعتباره هو نفسه من رجال الدين" 124.

والحقيقة أن مالتس لم يكن أول من قال بهذا الكلام، ولكن لعله أول من نظمه ورتبه وقننه من خلال نظريته، فلو نظرنا في عمق التاريخ في القرن 18 ق.م لرأينا في بعض النقوش الأكديّة عن بلاد ما بين النهرين أن الآلهة كانت تنزعج من كثرة الناس واتساع البلاد وكثرة الضجيج فيأمرون بإحلال الأوبئة والأمراض وحجب المطر عن الناس وغير ذلك من الوسائل التي تحدّ من عدد السكان، وإليك هذه الترجمة لهذه النقوش: "ستمئة سنة، أقل من ستمئة سنة مرت، وأصبحت البلاد واسعة جداً، والناس كثر. كانت البلاد ضاحجة كما الثور الخوار. ضاق الربّ ذرعاً بصخبهم، واضطر إيل لسماع ضجيجهم. فخاطب الآلهة قائلاً، ضجيج الجنس البشري لم يعد يطاق. ضجيج يفقدني رقادى. اقطعوا عن الناس غذاءهم! وليشح الزرع فلا يسد جوعهم! وليحرمهم أمد مطر.. ولتهب الريح، وتجرد الأرض مما عليها... وسوف لن تأتي السعادة عليهم" 125.

"وقد شغلت مسائل السكان بال الإغريق فنجدهم في أشعارهم القديمة يعتقدون أن زيادة السكان كانت سبباً في حرب طروادة، كما ذكر مالتس أن فلاسفة الإغريق كانوا يعتقدون خطر زيادة السكان... فكبانوا يعمدون إلى قتل أطفالهم، وهذا ما كانت تفعله بعض قبائل العرب... وقد اقتبس مالتس بعض آراء أفلاطون وأرسطو لكي يبين أنهما وضعاً هذا الأمر في موضع الاعتبار، فحدد أرسطو عدد المواطنين في كتابة القوانين بما لا يزيد على 5040 مواطناً في المدينة واعتبره العدد الأمثل، وهذه الأفكار عرفها الإغريق في القرن 4 ق.م 126. ومن جهة أخرى فإن فكرة مالتس والمالتوسيين من بعده تصب في صالح الإقطاع والرأسمالية لأنها تدافع عن الغني القوي وتغتمط حق العامل الفقير وتحرمه من ممارسة إنسانيته ومن التكاثر إلا بالقدر الذي يضمن بقاء طبقة العمال لتبقى الأموال تتدفق على ملاك الأراضي والمصانع.

كما أن هذه الأفكار لا يمكن أن تكون حلاً لمشاكل العالم الثالث أو المتخلف لأن هذه الأفكار مبنية على أساس بقاء تقسيم العالم على ما هو عليه لتبقى الدول الرأسمالية تمتص خيرات المتخلفة،

ولبقاء حالة التبعية، ولأن أي نهضة اقتصادية قوية في العالم المتخلف تعني ضربة اقتصادية للغرب الرأسمالي وضياح سوقه للتصريف والاستثمار في البلاد المتخلفة وبالتالي انخفاض الأرباح وغلاء المواد الأولية مما يؤدي إلى ضعف الدخل والنواتج القوميين، ووقوع أزمات اقتصادية خانقة هناك مما يكشف عورة النظام الرأسمالي.

## الحل من منظور قرآني:

بعد أن ظهر زيف المالتوسية بالدليل القرآني إضافة إلى أدلة أهل الاختصاص وإضافة إلى عدة عقود مضت كرسست التخلف والتبعية لم يعد أمامنا إلا البحث عن حل آخر وهو الذي أراه يدور حول المحاور الآتية:

### 1- "اعتماد الإسلام كأساس لبناء علم السكان والاقتصاد" 127.

فقد قال تعالى: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} 128. {ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً} 129 فللقرآن جانب مهم وهو العصمة من الخطأ، كما أن له أسبقية على المالتوسية وقد سبق شيء من هذا في هذا البحث 130 وقد أوعد سبحانه من أعرض عن ذكره بمعيشة ضنك وهذا ما نجده في زماننا قال تعالى: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى} قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى} 131. كما أن العودة إلى الله من أسباب الخير فقد قال تعالى على لسان نوح: {فقلت: استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً} 132. قال القرطبي: في هذه الآية دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار وبه قال الحسن 133. وفي الآية توازن بين زيادة البنين وبين الجنات والأنهار والأمطار.

### 2- التنمية المستقلة ونفي التبعية:

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكونوا إمعة" 134 والقرآن طلب من المسلمين عمارة الأرض فقال: {هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها} 135 وقد قال تعالى: {وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} 136 ومن أهمها في أيامنا الاقتصاد القوي الذي يعيننا على الاكتفاء وترك التبعية. كما نهانا القرآن أن نتخذ بطانة من غير المسلمين ومن باب أولى أن لا نكون نحن بطانة وتبعاً لغير المسلمين. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخَفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} 137.

فكيف بعد هذا نثق بحلولهم وأفكارهم التي يصدرونها لنا، وقد رأينا نتيجتها في العقود الماضية. إذاً ينبغي أن نستفيد من تجارب الماضي ونصنع أهل العلم والكفاءة القادرين على إخراجنا من عنق الزجاجة، فقد بين القرآن أن خزائن الأرض لا يصلح لإدارتها إلا ببلغ العلم والأمانة والصون. قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: {اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم} 138. فاستخراج

كنوز الأرض وثرواتها والاستفادة منها بشكل صحيح يحتاج إلى:

أ- **حفيظ يصون الموارد ولا يثلف بسبب سوء الاستخدام ولا يسرف ولا ييثر في التوزيع والاستهلاك وغير ذلك مما تحتمله كلمة (حفيظ) من معان.**

ب- **عليم بخطط إدارة الموارد وكيفية استخراجها وحسن التعامل معها وتطويرها وغير ذلك.**

ومن الواضح أن العلماء الصناع والمخترعين في أيامنا لم يكونوا من أهل الحفظ والعلم فبأفكارهم تلقت وتلوثت موارد الطبيعة وطاولت بضررها الكوكب بمن فيه. فيوسف عليه السلام بعلمه جنب مصر المجاعة عندما قال: {فما حصدم فذروه في سنبله...} 139 وعلماء أيامنا أهلكوا الإنسان والنبات والحيوان وقضوا على الكثير من موارد الطبيعة.

### 3- تحقيق العدالة الاجتماعية:

فإن سوء توزيع الثروة واستخدامها قسم المجتمعات المتخلفة إلى طبقتين: غنية جداً وفقيرة جداً وجعل ثروات البلاد دولة بين الأغنياء فقط، وقد سبق أن ذكرت قوله تعالى: {كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم} 140. وقال تعالى: {وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل} 141 وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع ومسؤول عن رعيته" 142 فحمل الجميع المسؤولية وفي مقدمتهم الحاكم. وقال أيضاً: "كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت" 143.

### 4- المحافظة على موارد الطبيعة:

وهذا يكون بالإيمان أولاً، فقد مر معنا أن الله سبحانه يعاقب المعاندين له بنكبات بيئية صعبة. وقد قال تعالى مخوفاً المفسرين والمبذرين من سوء توزيعهم واستهلاكهم لموارد الطبيعة: {ثم لتسألن يومئذ عن النعيم} 144. كما نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن إتلاف المال 145، ومنه رمي الطعام الزائد أو غير ذلك مما يحتاجه الناس وينتفع به. بل بالغ في حفظ نعم الله فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يلعق أصابعه بعد الطعام 146. وكان ينهى عن صيد الغرض 147 الذي لا يكون للأكل. وفي هذا أعظم الأمثلة على حفظ نعم الله.

وأحب أن أختتم هذا البحث بما قاله د. رمزي زكي: إننا لا ننظر إلى المشكلة السكانية على أنها تعبير عن سباق غير متكافئ بين نمو السكان من ناحية، ونمو الموارد المحدودة من ناحية أخرى، كما يرى المالتوسيون؛ بل هي سباق بين النمو السكاني المرتفع وبين جمود وتخلف التشكيلات الاجتماعية المهيمنة بالبلاد المتخلفة، التي عجزت عن تحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي لشعوبها، على النحو الذي يوفر الغذاء والكساء والتعليم والخدمات الصحية وفرص العمل الشريف لكل مواطن، قادر على العمل وراغب فيه. والمشكلة السكانية بهذا المعنى هي قضية صراع ضد هذه التشكيلات ومؤسساتها وعلاقاتها الداخلية والخارجية. أما الحقائق الديموجرافية التي تعكسها هذه المشكلة (مؤشرات الخصوبة ومعدلات المواليد والوفيات...) والتي لا يمل المالتوسيون الجدد من الإشارة إليها دوماً، دون غيرها، فليست إلا (ترمومتر أضم) يشير إلى درجة حرارة المريض، دون

أن يشخص لنا حقيقة المرض 148.

### الهوامش والمراجع

17-انظر: المشكلة السكانية ص 29 وجغرافية السكان ص 398.

18-المشكلة السكانية ص 251. وعلم السكان 163.

19-المشكلة السكانية ص 47، 109.

20-راجع: المشكلة السكانية ص 260. وعلم السكان ص 5.

21-نفس المرجع السابق ص 32. وراجع: علم اجتماع السكان ص 58. ودراسات في علم السكان ص 50.

22-دراسات في علم السكان ص 106.

23-انظر: المشكلة السكانية ص 75 وما بعدها.

24-دراسات في علم السكان ص 44، 76، وراجع: الجغرافية السكانية ص 400.

25-علم السكان ص 152.

26-المشكلة السكانية ص 275، 280. وراجع: علم السكان ص 157. والجغرافية السكانية ص 371.

27-دراسات في علم السكان ص 77. وراجع: علم اجتماع السكان ص 33 وما بعدها.

28-علم اجتماع السكان ص 58.

29-راجع: ابن جرير الطبري- جامع البيان ج 16- دار الفكر في لبنان- 1405 هـ- 1984 م ص 120 والزمخشري- الكشاف ج 3- نشر أدب الحوزة- إيران ص 39.

30-سورة مريم 77.

31-سورة مريم 78.

33-سورة الذاريات 22.

34-سورة لقمان 34.

35-سورة الأنبياء 89.

36-سورة إبراهيم 39.

37-سورة الشورى 49-50.

1-سورة البقرة 36.

2-سورة النحل 18.

3-سورة لقمان 20.

4-راجع: د.علي عبد الرزاق جليبي- علم اجتماع السكان- دار النهضة العربية- بيروت 1404 هـ- 1984 م. ص 54. هـ.رونج- ترجمة محمد صبحي عبد الحكم- علم السكان- مكتبة مصر 1967 م. ص 146. وعبد الحميد لطفي- دراسات في علم السكان- ط7- دار المعارف- القاهرة 1981 م- ص 69. والمشكلة السكانية وخرافة المالتسية الجديدة- رمزي زكي- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت- 1984 م. ص 21-22. وفتحي محمد أبو عيافة- جغرافية السكان- ط4- دار المعرفة الجامعية- الاسكندرية 1993 م ص 397.

5-راجع: الجغرافية السكانية ص 371 ودراسات في علم السكان ص 62 وما بعدها. والمشكلة السكانية وخرافة المالتسية الجديدة 29-30.

6-انظر: دراسات في علم السكان ص 69.

7-المشكلة السكانية وخرافة المالتسية الجديدة ص 23.

8-المرجع السابق ص 165.

9-علم السكان ص 146.

10-راجع: المشكلة السكانية ص 105 وما بعدها.

11-راجع: المرجع السابق ص 166.

12-المرجع السابق ص 221.

13-المرجع السابق ص 212-214.

14-انظر: دراسات في علم السكان ص 218.

15-علم اجتماع السكان ص 280-281.

16-راجع: دراسات في علم السكان ص 147 وما بعدها. وعلم اجتماع السكان ص 276 وما بعدها.

- 64-سورة المرسلات 23.  
65-انظر المشكلة السكانية ص5-6، 11.  
66-انظر المشكلة السكانية ص13، 30، 33.  
67-انظر المشكلة السكانية ص12.  
68-علم اجتماع السكان ص28.  
69-انظر المشكلة السكانية ص209.  
70-انظر المشكلة السكانية ص12.  
71-راجع: المشكلة السكانية ص166، 209 وما بعدها، 316، 326، 409. وكذلك راجع: عبد العزيز طربوش- مبادئ الاقتصاد- ط1- 2001م- المركزية للطباعة- اليمن- جامعة تعز- ص151.  
72-راجع: المشكلة السكانية ص7، 24، 216، 208، 294 ما بعدها و415-416. وراجع: مبادئ الاقتصاد ص151، 171. وعلم السكان ص161 والجغرافية السكانية ص384.  
73-سورة آل عمران 110-  
74-سورة البقرة 143.  
75-سورة الزمر 9.  
76-سورة هود 61.  
77-سورة التوبة 105.  
78-سورة الملك 15.  
79-سورة الجمعة 10.  
80-سورة النساء 79.  
81-سورة الروم 41.  
82-سورة الشورى 30.  
83-سورة ص 26.  
84-سورة النساء 58.  
85-راجع: عبد الكريم زيدان- أصول الدعوة- مكتبة المنار الإسلامية 1401هـ-1981م- ص223 وما بعدها.  
86-البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود: ابن الأثير الجزري بتحقيق الأرناؤوط- جامع الأصول- ط

- 38-ابن كثير- القرآن العظيم- د3- ط1- دار الفحاء- دمشق 1414هـ-1994م- ص154.  
39-سورة نوح 10-12.  
40-القرطبي- الجامع لأحكام القرآن- ج18- مكتبة الغزالي- دمشق- ص302.  
41-سورة القصص 4.  
42-الفخر الرازي- التفسير الكبير- ج23- ط3- ص225.  
43-سورة النساء 97.  
44-سورة النساء 100.  
45-البيضاوي- أنوار التنزيل وأسرار التأويل- دار الفكر- 1402هـ-1982م- ص124.  
46-سورة العنكبوت 62.  
47-سورة المرسلات 25-28.  
48-راجع تفسير الطبري 236/29.  
49-سورة الملك 2.  
50-سورة البقرة 36.  
51-سورة الأعراف 24-25.  
52-سورة الرحمن 26-27.  
53-سورة الجاثية 24.  
54-الشهرستاني- محمد بن عبد الكريم بن أحمد- الملل والنحل- ج2- ط2- مكتبة الانجلو المصرية- ص244.  
55-الراغب الأصفهاني- مفردات ألفاظ القرآن- ط2 - المكتبة المرتضوية- إيران- ص461.  
56-سورة النحل 5-18.  
57-سورة إبراهيم 34.  
58-سورة هود 6.  
59-سورة العنكبوت 60.  
60-سورة القصص 78.  
61-سورة اروم 9. وانظر سورة غافر 21.  
62-سورة التوبة 69.  
63-سورة فصلت 10.

- 111- محمد فؤاد عبد الباقي- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان- المطبعة العصرية- الكويت- 1397هـ- 1977م- رقم 884. والمقصود بالباءة: المقطرة على الزواج. وجاء: قاطع للشهوة.
- 112- سورة الحديد 27.
- 113- سورة الإسراء 31.
- 114- راجع: علم اجتماع السكان ص 267-268. ودراسات في علم السكان ص 60.
- 115- سورة الذاريات 56.
- 116- سورة النور 33.
- 117- سورة المعارج 24.
- 118- سورة الإسراء 70.
- 119- سورة الحجرات 13.
- 120- سورة القلم 17-20.
- 121- سورة الحشر 9. والخصاصة: الحاجة.
- 122- سورة الجاثية 24.
- 123- المشكلة السكانية ص 31.
- 124- انظر: دراسات في علم السكان ص 71.
- 125- ترجمتها ستيفاني والي. ونقلتها إلى العربية نجوى نصر- أساطير من بلاد ما بين النهرين- ط1- بيان للنشر والتوزيع والإعلام- بيروت- لبنان- 1997م. ص 42-43.
- 126- انظر: دراسات في علم السكان ص 60-61، وراجع كذلك: علم اجتماع السكان ص 49.
- 127- راجع: تفاصيل هذا الطرح لـ عبد الكريم زيدان- أصول الدعوة ص 229 وما بعدها.
- 128- سورة الأنعام 38.
- 129- سورة الفرقان 33.
- 130- راجع: بعض التفاصيل حول هذا الموضوع في: مبادئ الاقتصاد ص 14 ما بعدها. وأصول الدعوة ص 229 وما بعدها.
- 131- سورة طه 124.

- 2- دار الفكر- لبنان- 1403هـ- 1983م- رقم 202.
- 87- سورة القصص 26.
- 88- سورة الشعراء 152.
- 89- ممدوح عطية- المخاطر الطبيعية وأثرها على البيئة- دار الفكر العربي- 2000م- مصر ص 29-40.
- 90- علي علي البناء- المشكلة البيئية وصيانة الموارد الطبيعية- ط1- دار الفكر العربي- 2000م- مصر ص 29-40.
- 91- المشكلات البيئية وصيانة الموارد الطبيعية ص 41.
- 92- محمد عبد القادر الفقي- القرآن الكريم والتلوث البيئي- ط1- مكتبة المنار الإسلامية- 1985م ص 41.
- 93- سورة الأنفال 7.
- 94- سورة البقرة 188.
- 95- سورة المعارج 24.
- 96- سورة الأعراف 31.
- 97- سورة الإسراء 26-27.
- 98- سورة الإسراء 29.
- 99- سورة النساء 3.
- 100- سورة نوح 10-12.
- 101- انظر: المشكلة السكانية ص 30 وما بعدها.
- 102- راجع: المشكلة السكانية ص 223-224.
- 103- المشكلة السكانية ص 206-208.
- 104- سورة الأنفال 52.
- 105- سورة الأنعام 6.
- 106- سورة يونس 98.
- 107- سورة الأعراف 164.
- 108- سورة البقرة 155.
- 109- سورة النور 32.
- 110- سورة النور 33.

- |  |   |
|--|---|
| 142-سبق تخريجه.                        | 132-سورة نوح 10-11.                         |
| 143-مسلم 996 وأبو داود 1692 وفي جامع   | 133-تفسير القرطبي 302/18.                   |
| الأصول رقم 5891.                       | 134-الترمذي وحسنه- رقم 2007. (الكتب السنة)- |
| 144-سورة التكاثر 8.                    | الطبعة التركية- استنبول.                    |
| 145-البخاري- زكاة- ب18.                | 135-سورة هود 61.                            |
| 146-البخاري- أطعمة- ب52. ومسلم- أشربة- | 136-سورة الأنفال 60.                        |
| 134، 137.                              | 137-سورة آل عمران 118.                      |
| 147-مسلم- صيد- 58، 60.                 | 138-سورة يوسف 55.                           |
| 148-المشكلة السكانية ص455-456.         | 139-سورة يوسف 47.                           |
|  | 140-سورة الحشر 7.                           |
|  | 141-سورة النساء 58.                         |

